الاستعمار الفرنسي في الجزائر

للأستاذ حسن أحمد الخطيب

الأمة الفرنسية — منذ ثورتها الكبرى قبيل نهاية القرن الثامن عشر — تدعي أنها الحفيظة على الحرية البشرية ، وواضعة الحقوق الإنسانية ؛ بذلت في سبيلها أغلى المهج والأرواح وسطرتها بدماء أبنائها الأحرار ، وأعلنتها ديناً ومذهباً في فرنسا ، وبشرت بها في سائر الأمم الغربية وغيرها ، وزعمت أن غراس الحرية نبت في بلادها ، ثم زكا وترعرع ، حتى استوى شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين ، فيقطف منها الناس جميعاً دانى الثمر وطيب الجنى

ولقد غلت في حبها وأفرطت في تقديسها ، حتى اتخذها مفكروها محوراً لتفكيرهم ومصدراً لوحيهم وإلهامهم ، وتغنى الخطباء والكتاب والشعراء بالحرية والإخاء والمساواة شعار الثورة ودثارها ، ودين فرنسا الجديد وإنجيلها ! !

فهل كان ذلك حقاً ؟ هل كان ذلك ناجماً عن خليقة مستعدة للخير وطلب الكمال ، أو نخيزة تحفز لرعاية الفضائل ، أو قلب مؤمن بأسمى المبادئ ، أو عقيدة دفعت المصلحين إلى نقض بناء الظلم وتقويض دعائم الجور والثورة على القاسطين ، وتطهير الأرض من الظالمين ؟ ؟

نقول — والأسف يملأ جوانحنا — إن موقدي الثورة وحاملي بنودها والداعين إلى مبادئها ، لم يكونوا مؤمنين بها ، فلم تخالط بشاشتها قلوبهم ، ولم تمتزج بها نفوسهم ، إنما هي شقشقة هدرت ثم قرت ، وصيحة دوّت في الجو برهة ثم لم تنشب أن ذهبت أدراج الرياح ، ولم يلبث كبراء فرنسا وحكامها أن عادوا إلى سابق عهدهم ، وثابوا إلى ما كانوا عليه من استبداد ظالم ، وغشمرية يختفق فيها الحق ويضيع فيها الضعفاء ، ورجع الأقوياء فيها أشد صيالا ، وأقوى طماحاً . وإلا فما بال الفرنسيين رضوا بنقض عهد الثورة وميثاقها في أنفسهم ، وفي أبناء البلاد التي وقعت في حبائلهم ، فأذاقوهم عذاب الهون ، وصبوا عليهم صواعق غضبهم وهم ما اجترحوا سيئة ، ولا ارتكبوا أمراً إدّا

ومن هم أولئك الذين يُساموون هذا الخسف ويعانون هذا الظلم من مصادرة للحرية ، وإنكار للحقوق الشرعية ، وهدم لاستقلال البلاد ، وإضاعة لمعالم العدل والمساواة ؟

هم عرب المغرب ومسلموها في الجزائر وغيرها . هم أنسال أولئك الأمجاد الذين وطئوا بهذه البلاد وبالأندلس منذ آماد طويلة ، فنشروا فيها مبادئ العدل والحرية ، والمساواة والتسامح ، وحملوا لواء العلم والعرفان ، وأرسخوا فيها دعائم المدنية وأركان الحضارة

هم سلالة أولئك الهداة والرائدين من عرب المغرب والأندلس الذين علموا أبناء فرنسا وغيرهم من أمم أوروبا ، وأيقظوهم من سباتهم العميق ، وأخرجوهم من ظلمات الجهل والجور إلى نور العلم وضياء الحرية يوم أن كانوا يهيمون على وجوههم يتخبطون في دياجير الجهل ، ويرزحون تحت آصار الجنف والاستبداد

لقد شهد المنصفون من علماء أوروبا ومؤرخيها بعدل العرب وإحسانهم ، ورحمتهم وتسامحهم ، حتى قال جوستاف لوبون : «ما رأيت فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب» ، كما اعترفوا بأن نهضة أوربه إنما نبعت من معين العرب ، وشيدت بطلبة البعوث العلمية الذين ارتووا من مناهل علومهم ومعارفهم في طليطلة وقرطبة واشبيلية وغرناطة ومراكش وصقلية وغيرها . كذلك اقتبسوا من محاسن عاداتهم وقوانينهم ، وانتفعوا بما شاهدوه من زراعتهم وصناعاتهم ، وتنافسوا في ذلك تنافساً عجيباً ، حتى انتشرت هذه المعارف والعلوم ، وبزغت شمسها في أوروبا ، ولا سيما فرنسا وإيطاليا وجرمانيا وانجلترا ، وذلك في القرون الوسطى ، فنقلوا عنهم الفلسفة والهيئة والطبيعيات والبعريات والرياضة والكيمياء والطب والصيدلة والزراعة ، وتعلموا منهم الفروسية ، وأخذوا عنهم عمل الورق والبارود ، ونسج كثير من المنسوجات وكثيراً من الحبوب والأشجار

جاء في صحيفة مدرسة أدنبره :

« إنا لمدينون للعرب كثيراً ، فإنهم الحلقة التي وصلت مدنية أوربا قديماً بمدينتها حديثاً ، وبنجاحهم وسمو همتهم تحرك أهل أوروبا إلى إحراز المعارف ، واستفاقوا من نومهم العميق في الأعصار المظلمة ، ونحن مدينون لهم بترقية العلوم الطبيعية والفنون النافعة